الانتاج العقلى للأمم

للدكتور جواد على

كانت الفكرة السائدة حتى أوائل القرن الثانى عشر تقول بتطور البشرية تدريجياً من نقص إلى كمال ، ومن جهل إلى علم . وقد اختلفوا فى المبدأ ، هل كان الإنسان فى بدء خلقته كاملاً ، ثم انتكس وتدهور لخطيئة وقع فيها ، ثم بدأ يستغفر من ذنبه ، ويكفر عن سيئاته ، أو أنه بدأ كما نعرفه الآن ، ثم هو آخذ فى التطور إلى التكامل شيئاً فشيئاً ، حتى يعود الإنسان الكامل ذا المثل العليا التى يريدها بعض الفلاسفة وأصحاب الأحلام البعيدة[1] . غير أن تطور العلم الطبيعى ، وانتصار أوربا فى ساحات الفن والصناعات الضخمة والاستعمار ، زلزل هذه الفكرة وولد فى نفوس العلماء من أبناء تلك القارة ، فكرة الاستئثار بالزعامة والقيادة العالمية . فقسمت الشعوب العالمية إلى طبقات وأجناس لكل منها خواص وأوصاف كما هو شأن عالم الحيوان والنبات . وإذا كان علماء النبات أو الحيوان يقسمون العالم النباتى أو الحيوانى إلى فصائل وأجناس ، فلم لا يقسم علماء الأجناس البشرية ، البشر إلى فصائل وأجناس كذلك ؟ تستأثر أوربا بالفصائل العالية والأوصاف الراقية ؛ ثم تعطى ما تجود به للفصائل التى تمت إليها بصلة وقرابة ، ثم الأبعد فالأبعد .

وبعض الآراء المتداولة ترى العالم مؤلفاً من مجموعة حضارات[2] مستقلة لكل منها روحية خاصة ونفسية سماها (نفسيات الحضارة Kulturseelen) كما هو رأى الفيلسوف Spengler و Oswald تمر عليها جميع أدوار الحياة المعروفة من ولادة وطفولة وشباب ثم شيخوخة فممات ، تستغرق هذه المدة حوالى ألف سنة ، وأن ثلاث حضارات جاءت على التوالى تكمل الواحدة الأخرى وهى الحضارة اليونانية وسمتها (apollinische) والحضارة العربية وخاصيتها (magic) والحضارة الأوربية الجرمانية وهى (faustische)[1] بينما رأى الفيلسوف الألمانى الآخر Graf Herman Keyserling (كراف هرمان كيرلنك مؤسس مدرسة الحكمة فى مدينة دارمشتد Darmstadt) تنوع الحضارات البشرية كذلك واختلافها ولكنها ترجع كلها إلى أصل واحد ومنبع منظم هو القوة الخارقة الموجودة فى البشر التى تدفع الأمم بالسير إلى الأمام . قد تكون هى الحكمة (weisheit) لذلك كان يرى وجوب الاستفادة من الحكمة بدلاً من العلم المجرد[2]

وقد نشأ من جراء البحث المتوالى فى اختلاف عقليات الأمم وقابليات إنتاجها بحث خاص يسمى Kulturmorphologie غايته التعمق فى دراسة أمم الأرض ، واستخراج الأسباب التى أدت إلى ازدهار الحضارات أو هبوطها. وقد قسم العالم A. Sutherland شعوب العالم إلى أربع طوائف :

١ — الشعوب الفطرية ، أو التى تعيش على الطبيعة الأولى وسماها Naturvölker

٢ — الشعوب المتوحشة البربرية Barbarvölker

٣ — Zivilvölker أو الشعوب المتمدنة

٤ — Kulturvölker أو الشعوب المتحضرة . ولكل من

---

(١) انظر ذلك فى الفلسفة المسيحية وخصوصا الدور المسمى scholastik ومبحث Gnade أو الخلاص من الخطيئة وفلسفة Fichte ١٧٦٢ـ١٨١٤ وكذلك Herder (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) فى كتابه Ideen mur Philosophie der Geschichte der menschheit وكذلك الفيلسوف هيكل Hegel (١٧٧٩ ـ ١٨٣١) فى كتابه Die Vorlesungen über die Philosophie der Geschichte

(٢) تميز اللغة الألمانية بين كلمة Kultur المأخوذة من اللاتينية Cultura من Colere ومعناها الاعتناء بالأرض وإصلاحها وزرعها فاستعملتها للعناية بالبشر وخصصتها بالمسائل الروحية فقط والناحية النفسية مثل الشعور والعواطف والديانة والموسيقى والاجتماع والسياسة والتربية على اختلافها (انظر ص ٣٥١ Phi. wörterbuch و Heinrich Schmidt) واستعملت كلمة Zivilisation المدنية المأخوذة من اللاتينية كذلك Civis للدلالة على الحالة التى تعقب التوحش ثم خصصت بعد ذلك للانتاجات العقلية =

= الظاهرة مثل أشكال المدن الصناعات أى الصناعات والفنون الآلية من البشر . ومتى ما انحطت الحضارة تهبط إلى المدنية قد يمكن أن تتساوى الشعوب فى المدنية أما من ناحية الحضارة فلا يمكن ذلك إذ أن لكل شعب عواطف وروحيات خاصة به انظر نفس الكتاب كذلك ص ٧٤٦ واللغة الانكليزية والفرنسية لا تميز بين الكلمتين انظر كتاب Geschichte der Z. in England

(١) انظر كتاب Phi. wörterbuch ص ٦٢٠ وكتاب Lehrbuch der Oeschichte der Philosophie و Windelband ص ٦٠٩ مادة ٣ فصل ٤٩

(٢) أنظر Phi. wörterbuch ص ٣٢٨ وكتاب Der mythus ص ٢٩٦ ، ٦٠ ، ١١٥ ، ٤٠٣

هذه الأقسام درجات ثلاث : واطئة ، وسطى ، وعليا[1]

ولكن هنا مشكلة عظيمة تجابه الباحث ، وهى الدوافع الخفية التى تدفع بالشعوب إلى الحضارة وإلى إنتاجها الروحى ، هل هو عامل داخلى يدفعها إلى ذلك دون مؤثر خارجى ، أو عامل خارجى بحت كما يذهب إليه الماديون وأتباع كارل ماركس، أو دوافع المحيط الخارجى كالزمان والمكان كما هو رأى العالم Les Frobenius (ولد ١٨٧٣) (أنظر ص ١٩٣ Phi. wörterbuch) وبين المبدأين بون شاسع كما يظهر . ومن أتباع المذهب الأول العالم الفرنسى Gustave Le Bon_ Gobineau (١٨٤١ـ ١٩٣) و H. st. Chamberlain و Ratmenhafer و Waltmann و V. Eickstedt فى ألمانيا و Ward فى أمريكا. جعلوا العنصرية العامل الأساسى فى تكوين الحضارة. ومن هذه النظرية استحدثت النازية رأيها من أن الحضارة العالمية نتيجة العقلية الآرية فقط، وأن العالم يتألف من طبقات ثلاث حسب رأى هتلر مؤسس هذا المذهب ، من :

١ — شعوب أسست الحضارة Kulturbegrunder

٢ — وشعوب تنقل الحضارة دون أن تضيف إليها شيئاً أو تغير فيها ، وسماها Kulturträger

٣ — وشعوب هدمت الحضارة وأفسدتها سماها : Kulturmerstörer ومن هذه الشعوب الروسي البلشفى، ولا أدرى أغير رأيه الآن بعد اتفاقه مع البلاشفة أم لا

وتتلخص فكرته فى أن الحضارة البشرية نتيجة عاملين فقط : الدم والأرض Blut und Boden والعنصرية هى المظهر الخارجى للروح[2]

على عكس هـذه النظرية تماماً نظرية « كارل ماركس » Karl Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) مؤسس المذهب المنسوب إليه والبلشفية والشيوعية التى تتخذ المادة كأساس فى كل شىء إذ يقول : « الآراء السائدة فى زمن ما تمثل آراء الطبقة الحاكمة فى ذلك الزمن[3] » وكذلك قوله: «غيروا الوضع السياسى والوضع الاقتصادى تغيروا بذلك البشر[4] » ولذلك تحارب البلشفية النظام الرأسمالى لأنها تعتقد أنه مصدر كل شر، وبإزالة هذا النظام تتغير العقلية البشرية وتفكيرها ويظهر تفكير عالى جديد . وهذا الرأى مأخوذ بصورة مكبرة عن المبدأ المادى الذى يجعل المادة أساس كل شيء والروح نتيجة عمل الدماغ . بل لقد غالى الفيلسوف فويرباخ (١٨٠٤ — ١٨٧٢) Ludwig Feurbach حتى قال : « الإنسان يكون حسبما يكون أكله[5] »

لست بمتعرض للنقد هنا ولكن أقول : للطرفين غلو عظيم، وكلا الرأيين قديم فى تأريخه يرجع إلى عصور اليونان وربما يرجع إلى أقدم من ذلك . وإنى أرى أن هنالك آراء عامة تطرق إليها عقل كل إنسان ، كل على حسب قابليته ومحيطه ، ومن هذه الآراء هـذه المشكلة ، ولكن الأساليب فى معالجتها تختلف والكلمات تتغير ؛ والاكتفاء بالدم والأرض فى تعيين الإنتاج العقلى للأمم أمر يخالفه الواقع . ونرى أن التطور الاقتصادى مثلاً قد قلب أوربا رأساً على عقب وغير مقاييسها الأدبية والأخلاقية والنزعة الروحية التصوفية التى سادت ألمانيا والعالم بعد الحرب العظمى ، وأن حب التشاؤم الذى ساد كذلك، وظهور مايسمى بـ Sexualität أو الميول الشاذة بأجلى مظاهرها ومعالجتها علناً، وظهور مذهب expressionismus ومذهب impressionist[6] تدل على أن المادة مؤثرة فى الروح لا محالة . وكذلك من باب المغالطة جعل الإنسان آلة تتحرك بمؤثر خارجى كالآلات الصماء التى تشتغل فى المعامل. وما نجده من العوامل الروحية فى الطفل وفى حالات المجرمين بالطبيعة ، والذكاء

(١) أنظر كتاب Phi. wörterbuch ص ٣٥٣ وكتابه المشهور aïber den wrsprung uud das wachstum des moralischen instinhts 1898

(٢) انظر كتاب هتلر كفاحى Mein Kampf ج ١ ص ٢٨٥ ، ٣١٦ ، وكذلك كتاب روزنبرك Der Mythus ص ٦٠ ، ١١٥ ، ٤٠٣ وكتابه Blut und Boden ١٩٣٤

(١) انظر كتاب الاشتراكي الهولندى Hendrik de man المسمى Der Somialismus als Kultur bewegung ص ٥

(٢) انظر نفس الكتاب ص ٦

(٣) انظر كتاب Geschichte der Philosophie, Vorländer ص ٤٢٢

(٤) أنظر كتاب Curt Gebauer المسمى : Detsuche Kultur Geschichte der Neumeit فصل الحضارة بعد الحرب العظمى

أو الجمود الفكرى يناقض النظرية المادية تماماً

ولكن ما هى المقاييس التى ستنتخب للحكم على أمة بأنها متحضرة وعلى درجة حضارتها ؟ أجد أن الأساليب المتبعة الآن فى أوربا فى تعيين الحضارات كلها مقاييس واهنة ، إذ هى تقيس كل حضارة بالنسبة إلى المقاييس التى لديها ، وبالنظر إلى العرف أو العادات أو الذوق الذى تراه ، وهذا ما يدعو إلى الحكم الخطى طبعاً . أضف إلى ذلك أن دراسة الإنتاج الروحى أمر عسير جداً ويحتاج إلى إلمام كثير بالظروف والأحوال التى تحيط بتلك الأمة التى ستدرس أو يحكم عليها . فالعزم Wille مثلاً يجعله كتاب أوربا اليوم من أهم ميزات الأوربى ، وكذلك حبه للسيطرة eroberung Geist ولكن لو حللنا الظروف والأحوال التى حطمت هذه الميول ، وجو الشرق المحرق وخيراته الكثيرة لوجدنا أن تلك لم تعد ميزة عقلية، إنما هى ناحية وردت عن طريق الحاجة والمحيط

إن الفيلسوف نيتشه يجعل الحضارة ترادف « العزم على العمل » التى يرددها دائماً will mur macht . وقد أخذت الفاشية ذلك ، وموسوليني من أكبر المحبين لفلسفة نيتشه ، فجعل الامبراطورية تشمل الناحية الروحية كذلك ، فهو ينص فى كتابه الذى ألفه فى مبادئه على أن السيطرة والاستيلاء Impero لا تقصر على السيطرة بكثرة الجنود والأراضى، بل تشمل سيادة العالم الروحى وتقوية الإرادة والعزم . وضعف هذه معناه الانحطاط والتدهور(١)

مراد علي
خريج جامعة هامبرك بألمانيا

(١) أنظر كتاب موسوليني Benito Mussolini, La dottrina del Fascismo Con Una Storia del Movimento fascista di Gioachino Volpe. 1932.

عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكى مبارك

فى الأسبوع المقبل تظهر الطبعة الثانية من كتاب « عبقرية الشريف الرضى » فى مجلدين كبيرين ، وفى رونق جميل ... وفى الطبعة الجديدة زيادات وتحقيقات فصّل بها المؤلف ألواناً من عبقرية الشريف ضاق عنها الوقت فى بغداد ... والطبعة الجديدة برونقها وتحقيقاتها هى تحية المؤلف إلى الشريف بمناسبة مرور ألف سنة على ميلاد صاحب « العلا والمعالى » وصاحب « الحجازيات » وهى كذلك استجابة لدعوة الأدباء الذين اشتاقوا إلى رؤية هذا الكتاب فى طبعة فاخرة تناسب موضوعه الجليل

وقد كان الشريف الرضى يهدد خلفاء بنى العباس بأن له فى مصر أصدقاء يعتمد على نجدتهم حين يشاء ، وبهذا الكتاب صحت آمال الشريف فكان له فى مصر صديق يتحدث عن عبقريته بإفاضة واستقصاء بعد مرور الأجيال الطوال

ومؤلف « عبقرية الشريف الرضى » يسرّه أن تظفر طبعة القاهرة بما ظفرت به طبعة بغداد من حُسن القبول ، ويرجو أن يكون لما فى الطبعة الجديدة من زيادات وتحقيقات وقعٌ جميل عند المشتغلين بدرس الأدب الرفيع

على أننى راضٍ بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لا علىّ ولا ليا

زكى مبارك